

خط القرآن في التناجي



"لَنُدْخِلَ إِلَى أَجْوَاءِ النَّجْوَى بِقُلُوبٍ تَقِيَّةٍ وَعُقُولٍ تَقِيَّةٍ وَإِحْسَاسٍ تَقِيَّ يَتْهَرِّكُ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ الْأَحَاسِيسُ السُّرِّيَّةُ لِحَمَايَةِ الْحَقِّ وَإِزْهَاقِ الشَّرِّ وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ وَدَحْضِ الْبَاطِلِ".

هناك في القرآن عنوان تحدث عنه الله تعالى في أكثر من آية، وهو عنوان النجوى، والنجوى تعبير عن الكلام السري الذي يدور بين شخصين أو عدة أشخاص، لأن الموضع الذي يريدون أن يتهدّوا به قد تكون له أهمية وقد تكون له خطورة بالنسبة لهم، وربما تكون النجوى في الخير إذا أرادوا أن يتحدّثوا عن الخير سراً، حذراً من أن يغطّل الآخرون خطة الخير إذا عرفوها مسبقاً، وقد يكون التناجي شراً إذا كانوا يخططون لبعض السوء المتعلقة بالأشخاص وبالأوضاع وبالقضايا.

النجوى غالباً ما توحى للإنسان بالحرّية في الحديث لأنّ الإنسان يتحفظ عادة في أحاديثه إذا كان هناك مَنْ يخشى أن يسمعه، وأما إذا كان الذي يسمعه محل ثقة لديه انطلاقاً من وحدة الحال أو وحدة الموقف أو وحدة الخطبة فإنّه شعر بالحرّية. ولذلك فقد تكون النجوى أقرب إلى الشر منها إلى الخير، لأنّ الخير قليلاً ما يخاف الإنسان علانيته، بينما الشر يخاف الإنسان العلانية فيه، فيحاول إخفاءه.

خط القرآن في التناجي:

لقد انطلق القرآن الكريم ليؤكّد لنا الخط فيما نتناجي به، وليشرح لنا طبيعته الروحية التي كان المนาقوسون يجيّرون فيها النجوى للإساءة إلى المؤمنين، ثم يعطينا الخط العام والقاعدة العامة في موضوعات النجوى. وفي البداية يقول الله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَدُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ)، وتحدّثتم بحديث في السر بحيث لا يطلع عليه أحد (فَلَا تَتَنَاجَجُوا بِالْأَذْمِ) بما يغضّ الله (والعدوان) بما يشكّل خطة للاعتداء على الآخرين أفراداً أو جماعات، بحيث تحاولون أن تخفّوها

عن الناس لتنفيذها بطريقتكم الخاصة (وَمَعْصِيَةُ الرَّسُولِ) (المجادلة/ 9)، لأنَّ الآية الكريمة كانت آنذاك في زمن الرسول (ص) ويمكن أن نتمد بها إلى زماننا هذا، لأنَّ معصية الرسول لا تتحدد فقط في تعليماته اليومية ولكنها تشمل تعليماته العامة على مستوى الخطوط المتصلة بالواقع الإسلامي كله سواءً على صعيد المفاهيم، أو على صعيد الواقع. كما أرَّنا عندما نسمع كلمة معصية الرسول فإنَّ القضية لا تتصل به شخصياً وحسب ولكنها تتصل به موقعاً ودوراً وقيادة، فإذا كان للمسلمين قيادة تتحرَّك في خطِّ الرسول على مستوى الإمامة أو على مستوى الذي يمتد من خلال الإمامة، فإنَّ من الممكن أن تشملها كلمة معصية الرسول، لأنَّه يريد أن يُطاع أولياؤه كما يريد أن يُطاع أنبياؤه، فالأمر ليس خصوصية الرسول في صفتة الذاتية، بل هو خصوصية الرسول في صفتة الرسالية التي تتحرَّك مع الولي، وتتحرَّك مع القيادة الشرعية مع ما هناك من فرق بين شخصية الرسول في عصمته وشخصية القيادات الأخرى التي لا تملك عصمة في حركتها، ولكن تبقى طاعة القيادة الشرعية هي الخط الذي يريد الله للناس أن يتبعوه.

هذا هو الجانب السلبي (لَا تَتَنَاهَا جَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدُوِّ وَانْ وَمَعْصِيَةُ الرَّسُولِ وَتَنَاهَا جَوْا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَى) (المجادلة/ 9)، أي الخير الذي تريدون أن تقدموه للناس سواءً أكان خيراً في مستوى حاجات الناس المادية أو كان خيراً في مستوى حاجات الناس الروحية والاجتماعية والسياسية والأمنية والثقافية، لأنَّ كلَّ ما يرفع مستوى الناس وكلَّ ما يقدم الخير للناس فهو من البر والتقوى، فالمطلوب هو أن تتناجوا في كيفية تحريك التقوى في أنفسكم من خلال عناصرها التي تنطلق على أساس العقيدة والانصباط والتزام والتقوى في حركة الإنسان كله. وأن تدرسوها كيف يمكن أن نخطط للتقوى الاجتماعية، وكيف يمكن أن نخطط للتقوى السياسية، وكيف يمكن أن نخطط للتقوى الأمنية والثقافية وما إلى ذلك.

خطوط التقوى في الحياة:

لكلَّ خط في الحياة تقواه، وإنَّ تعالى يريد للإنسان في كلَّ خط أن يقف على حدوده فلا يتجاوزها إلى غيرها (وَتَنَاهَا جَوْا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَمَّ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (المجادلة/ 9). اتقوه عندما تتحدد ثون همساً، وعندما تتحدد ثون جهراً، واتقوه في مضمون ما تتحدد ثون، واتقوه في تطلعاتكم، اتقوه في الوسيلة واتقوه في الهدف، اتقوه لأنكم ستحسرون إليه (إِنَّ إِلَيْنَا إِرْبَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) (الغاشية/ 25-26).

ثم يحدِّثنا الله عن تجربة النجوى في الواقع الإسلامي في مجتمع المخالفين (إِنَّمَا الدَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لَيَأْخُذُنَ الَّذِينَ آمَنُوا). كان المخالفون يجتمعون وإذا رأوا المؤمنين تهمسوا فيما بينما في طريقة إيحائية كما لو كانوا يدبرون لهم شيئاً، وكما لو كانوا يخططون فيما يملأوا قلوب المؤمنين بالحزن والقلق كما يفعل الكثير من الناس عندما يجدون شخصاً يريدون أن يثيروا القلق والخوف في نفسه، فإذا نهم يتها مسون أماه ويشيرون إليه حتى يفقد استقراره النفسي، (إِنَّمَا الدَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لَيَأْخُذُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَسْ بِهِمْ شَيْءٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)، فإن يضر الإنسان إنساناً أو أن ينفع إنساناً فإنَّ ذلك ينطلق من حركة الإنسان في المطلق، فيensi أنَّ هناك إذن الله في الظروف المحيطة بالأشياء، وفي الأوضاع التي تحرَّك في الداخل وفي القوانين التي رسمها الله في قضاها وقدره (وَلَيَسْ بِهِمْ شَيْءٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) (المجادلة/ 10).

دعوا القلق فـ الله فيكم:

أيها المؤمنون لا تدعوا القلق يدمِّر نفسياً لكم، ولا تدعوا الخوف يأكل أمنكم، لا تعيشوا حالة الضياع والتردد والقلق، إنَّ لكم إلهًا يرعاكم، وإنَّ لكم ربًا يدبركم، وإن لكم مولىً يحميكم.

اعملوا كلَّ ما عندكم من وسائل الأمان وتكلوا على الله (وَعَلَيْنِ اللَّهَمَّ فَلَيُتَوَكَّلْ إِلَيْ مُنْدُونَ) (المجادلة/ 10). ويقول الله في آية أخرى: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَيْنِ اللَّهَمَّ فَهُوَ حَسِيبُهُ إِنَّ اللَّهَمَّ بَالْغُلَمُرَه) (الطلاق/ 3). ولا يبلغ أمره أحد، (وَقَدْ جَعَلَ اللَّهَمُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) نظاماً وتوازناً في كلَّ حركة الواقع، وفي كلَّ حركة الإنسان، وفي كلَّ حركة التاريخ (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافِ عَبْدَهُ، وَيُخْوِي فُوزَكَ بِالَّذِينَ مِنْ

دُونِهـ) (الزـمر/ 36). وإذا كان الله يكفيك فمن ذا الذي يخوفك ومن ذا الذي يقلفك، كن الإنسان المطمئن، كن صاحب النفس المطمئنة يا إله وإن عاش الطمأنينة بالله، فلن يخاف أحداً، ولن يحزن في الدنيا قبل الآخرة لأن الثقة بالله تعمق الثقة بالنفس وبالخط وبالحياة.

إن الله سبحانه بعد أن يتحدث لنا عن ذلك كلامه يتلتفت إلى المجتمع وإلى كل النجاوي التي تدور بين الناس ليقول: (لَا خَيْرٌ فِي كَثِيرٍ مِّنْ زَجْ وَاهْمٌ) لا خير فيها، لأن النجوى تخزن - في الغالب - الأجواء السرية التي يشعر الناس فيها بحرية أن يتكلّموا من دون ضوابط، وأن يخططوا من دون تقوى، إذن (لَا خَيْرٌ فِي كَثِيرٍ مِّنْ زَجْ وَاهْمٌ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ بِصَدَقَةٍ) (النساء/ 114)، والمصدقة تعني العطاء في كل ما يريد الله للإنسان أن يعطيه، فالمتبار من الصدقة أذها صدقة المال، ولكن هناك صدقة العلم، وهناك صدقة القوة ومصدقة السلطة، فلكل شيء صدقة، وكل شيء زكارة. وقد ورد في بعض الآثار (إن الله فرض عليكم زكاة جاهم، كما فرض عليكم زكاة ما ملكتم أيما نكم) وإذا حاول أن تتصدق بقوتك وبجاهك، وتتصدق بعلمك وبخبرتك وبسمتك وبكلماتك إن الكلمة الطيبة صدقة".

نحو الخير:

لذلك (إلا مَنْ أَمْرَ بِصَدَقَةٍ) حتى يركّز العطاء في واقع الناس (أو مَعْرُوفٍ) والمعروف يتسع اتساع الخير كلامه في الدنيا في كل جوانبها، هناك معروف في العلاقات ومعروف في الأعمال الفردية ومعروف في السياسة ومعروف في الاجتماع ومعروف في الأمان ومعروف في كل ما يعرفه الناس مما يرفع مستواهم ومما يخدم التطور الإنساني في حياتهم (أو إصلاح بيتهن النساء) هذه النجاوي الخيرة التي تخطط في السر لإنجاح صلح بين اثنين أو بين جماعتين والإصلاح بين الناس إذا تخاصموا وتقربيهم إذا تباعدوا.

ولكن يبقى الإصلاح بين الناس يتحرّك كون في مستوى المفاهيم ليصلح أمر الناس فيما بينهم من خلال المفاهيم التي يلتقون عليها ومن خلال الأساليب والوسائل التي تقرب القلوب والتي تجمع النفوس على الخط الذي يحبه ويرضاه (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ أَبْتَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) لا يفعله لشيء ذاتي أو لطمه، بل ابتغاء مرضاه الله وتلك هي قمة الأخلاق وقمةوعي المسؤولية في وهي معنى العبودية الطلقة في الإنسان أمام الألوهية المطلقة في الله. أن تفعل ابتغاء مرضاه الله ليحبك أكثر وليربك أكثر وليحتضنك بعطفه وحنانه ولطفه أكثر (وَفِي ذَلِكَ وَلَدْيَتَذَادَافَسِ الْمُتَذَادَافِسُونَ) (المطففين/ 26)، (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ أَبْتَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ زُؤْتَهُ أَجْرًا عَظِيمًا) (النساء/ 114)، وإذا كان الله يعذ العاملين من أجل مرضاته بالاجر العظيم فإن ذلك يوحى بالحجم الكبير الذي لا حد له من ثواب الله من رضوانه.

ويبقى لنا، أن ننطلق في هذا العنوان الكبير "النجوى" من أجل أن ندخل إلى أجواء النجوى بقلوب تقية وعقول تقية وإحساس تقي يتحرّك من أجل أن تكون الأحساس السرية لحماية الخير والإزهاق الشر والإقامة العدل ودحض الباطل، هذا هو الطريق للإنسان يريد أن يعيش إسلامه مسؤولة في الدنيا، ليلتقي بنتائج المسؤولية والآخرة (وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) (التوبه/ 105).